٢

فى العصر الإسلامى

بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب بدين جديد ، قوامه الإيمان بإله واحد وسع علمُه كلَّ شىء وسيطرت قدرته على السموات والأرض إله رحيم عظيم المغفرة ، والإيمان كذلك برسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وما يتصل به من ثواب وعقاب ونعيم وعذاب ، مع أداء فروض دينية هى الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ومع التحلى بمثالية خلقية كريمة تقوم على نبذ الفواحش والبغى والعدوان واجتناب الأخلاق الذميمة مثل البغى والنميمة والتجسس ، ومع طائفة من النظم الاقتصادية والاجتماعيـــة تحيل الأمة الإسلامية إلى أمة متعاونة على الخـــير والبر والتقوى ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولا يعيش فيها شخص لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضًا للجماعة ، بحيث إذا كان ثريًّا ردَّ بعض ماله على الفقراء وعلى الصالح العام للأمة . وبمجرد أن دعا الرسول عليه السلام قريشًا إلى هذا الدين الحنيف أخذت تسخر منه وتضطهده هو وأتباعه الذين آمنوا برسالته ، فنصح لأتباعه أو لكثير منهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، حتى لا تفتنهم قريش عن دينهم . ولما يئس عليه السلام من قريش أخذ يعرض نفسه على القبائل فى مواسم الحج ، وآمن به بعض الحجاج من أهل المدينة من الأنصار . وفى الموسم التالى ازداد عدد من آمن به منهم ، وبايعوه على نشر الإسلام والدفاع عنه بالأموال والمهج والأرواح ، وألحوا عليه أن يهاجر إليهم هو وأصحابه ليحموهم . ولبىّ دعوتهم الكريمة فأمر أصحابه بالهجرة إليهم ، ثم هاجر مع أبى بكر الصديق ، ودقت البشائر فى المدينة بقدومه ، واستقبلوه استقبالا عظيما . وأخذ يُرسى دعائم الإسلام ، وقريش تتعقبه وتتسقط أخباره وتستعد لنزاله مع أصحابه . ويصبح جهادها وجهاد أعداء الإسلام الكفار من حوله فريضة مكتوبة ، وتنزل آيات كثيرة فى ثواب المجاهدين وما ينتظرهم من النعيم المقيم ، ويحرِّض الرسول على الجهاد ، ويتحول أصحابه من المهاجرين والأنصار إلى ما يشبه جَمْراً ملتهباً ، يريدون أن يأتوا على قريش ويقهروها قهراً .

وتجمع قريش جموعها ، وتنشب غزوة بدر ، وتلتقى الفئة الكافرة الكثيرة فى العدد والعُدَّة بالفئة المؤمنة القليلة ، ويحرض الرسول عليه السلام أصحابه قائلا : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقْتَل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فقال عُمير بن الحُمام الأنصارى وفى يده تمرات يأكلهن بَخٍ بَخٍ ! (عجبا عجبا) فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ، ثم ألقى التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم ، فاتكاً بهم فتكاً ذريعاً ، حتى استشهد ، وهو يقول :

رَكْضاً إلى الله بغير زادِ إلا التُّقَى وعمل المعادِ
والصبر فى الله على الجهادِ وكلُّ زادٍ عُـــرْضَةُ النَّفادِ
غيرُ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَادِ

وتحوَّل كل شخص فى أصحاب رسول الله إلى ما يشبه عمير بن الحمام ، فهو يقاتل الفئة الكثيرة ويستبسل ، طاعنًا بسيفه فى صدور صناديد قريش ، داقًّا برمحه فى نحورهم . حتى ولوا الأدبار ، مخلفين وراءهم مائة وأربعين من ساداتهم وشجعانهم بين قتيل وأسير ، غير الغنائم الكثيرة التى غنمها المسلمون . ومنذ هذه الغزوة حتى فَتْح مكة يقف شعراء قريش مع قومهم مدافعين عن الوثنية والشرك بالله ، بينما يقف شعراء المدينة من أمثال حسان بن ثابت مع الرسول مدافعين عن الدين الحنيف ومهددين متوعدين قريشًا بغزوات لا تبقى منها ولا تذر . وواضح أن الشعر فى هذه الفترة كان تعبيراً جماعيًّا فى مكة والمدينة ، فالشاعر يصدر فيه عن جماعته ومشاعرها . وأخذ بعض الشعراء منذ هذا التاريخ ينظمون أشعاراً يستوحون فيها آى الذكر الحكيم ، على نحو ماهو معروف عن لَبيد صاحب البيت المشهور :

أَلا كلُّ شَيْءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وله وراء هذا البيت أشعار دينية كثيرة يستلهم فيها — كما قلنا — الآيات القرآنية . ومثله فى هذا الاتجاه النابغة الجَعْدى . وهما فى واقع الأمر إنما يتغنيان بمشاعر المسلمين الروحية من حولهما ، مشاعر الشعب كله ، فقد دخل العرب جميعا فى دين الله . ولم يكن الشعر الدينى وشعر الجهاد فى سبيل الله وحدهما

الشعر الذى يعبر عن روح الجماعة وانطباعاتها الشعبية ، فحتى المديح حين يمدح حسان بن ثابت أبا بكر الصديق ، مصوراً فيه الرجل المسلم المثالى الكامل إنما يعبر عن أفكار الجماعة ، ومديحه له بذلك مديح جماعى . وبالمثل رثاء الشماخ بن ضرار أو أخيه لعمر بن الخطاب حين امتدت إليه يد أبى لؤلؤة المجوسى الآثم فى صلاة الصبح بطعنة مسمومة إذ يقول :

عليكَ سلامٌ من إمامٍ وباركتْ يَدُ اللهِ فى ذاكَ الأديمِ المُمزَّقِ
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ ليدركَ ما قدَّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

والبيتان يعبران عن رأى الجماعة الإسلامية فى عمر لا فى عصره فحسب ، بل فى كل العصور ، إذ أقام خلافته وحكومته على موازين عدل ، لم تتح لخليفة من بعده ، موازين شديدة الحساسية ، لم يستطع حاكم بعده أن يستخدمها استخدامه الرائع دون تسلط ودون عنف ، كما جعل العدالة تستقر وتصبح بمأمن من كل بغى وكل عبث وكل طغيان .

ويهاجر العرب منذ عصر أبى بكر هجرتهم الكبرى إلى الفتوح الإسلامية وهم يدوُّون بالقرآن الكريم دوىّ النحْل ، وما نكاد نفتح كتاباً يصف فتوحهم من الكتب التاريخية القديمة حتى نجد الأشعار تتطاير مع كل معركة على لسان كل جندى مجاهد فى سبيل الله ، فهو يسلّ سيفه كما يسلّ لسانه بالبيتين والأبيات يستثير نفسه ومن حوله متغنياً ببسالته وجهاده طلبا للفوز فى الآجلة ، وحتى تكون كلمة الله هى العليا . وينظم المجاهدون أشعاراً لا تكاد تحصى فى جميع الميادين شرقا وشمالا وغرباً : فى العراق وإيران وفى الشام وفى مصر . وتبقى منها بقايا ، تدل على الطوابع الشعبية فيها سواء من حيث صياغتها أو من حيث ناظموها ومن نُسبت إليهم ، أما من حيث الصياغة فقلما يعنى ناظموها بتجويدها وتحبيرها لسبب طبيعى ، وهى أنها ثمرة اللمحة الخاطفة السريعة ، لمحة استلال السيف ومنازلة العدو ، ولذلك كان الشاعر فيها لاينقّح لفظاً ، ولا يُعْنَى بالتماس صيغة معينة أو وزن معين ، فإنه مشغول عن ذلك كله بالهجوم على العدو ، وهو يُلقى بالبيتين أو الأبيات فى سرعة دون محاولة لتنقيح أو ما يشبه التنقيح ،

وكأنها نبال يصوبها إلى الأعداء مسرعاً ، ولذلك كانت تشيع فيها البساطة ، فلا تكلف ولا محاولة لتكلف ، إذ المجاهد فى سبيل الله مشغول عن ذلك كله بمنازلة أعداء الله وطعنهم الطعنات المصمية . وأما من حيث الناظمون ومن نُسبت إليهم فإن جمهورهم من عامة العرب ، ولا نكاد نظفر بينهم بشاعر نابه إلا فى الحين بعد الحين ، أما الجمهور فهم شعراء عاديون لم يكونوا ينظمون الشعر ولا عُرفوا به قبل الفتوح ، ولذلك أكثرهم مجهولون لنا ، لا نكاد نعرف عنهم سوى أسمائهم التى تذكرها كتب الفتوح ، وكأنها هى التى ألهمتهم الشعر وجعلتهم ينطقون به لأول مرة ، وهو لذلك شعر عارض فى حياتهم ، وهو لذلك أيضاً شعر شعبى من إنتاج العامة فى الأمة .

وكتاب تاريخ الطبرى يعرض أطرافاً كثيرة من هذا الشعر فى أثناء عرضه لمعارك الفتوح . ونقف قليلا إزاء معركة القادسية فى جنوبى العراق التى فُتحت بعدها الأبواب إلى إيران ولم تقم للفرس قائمة . وقد سبقتها معارك صغرى فى أغواث وغير أغواث . وكان يقرأ قراء مختلفون مع كل هجوم آيات الجهاد فى القرآن الكريم ، حتى إذا فرغ القُرَّاء كبَّر القائد ، وكبَّر الذين يلونه تكبيرة ، وكبَّر الناس ، ثم يتحركون للهجوم ، ويثنّى القائد التكبير فيستتمّ الناس حركتهم ، ويثلّث التكبير فيبرز أهل النجدات وينشب القتال . ويذكر الطبرى أنه خرج من الصفوف على إثر ذلك فى يوم أغواث غالب بن عبد الله الأسدى ، وهو ينشد :

قد علمتْ واردةُ المَسَالِحِ ذات اللَّبان والبَنَان الواضح
أنى سِمامُ البطلِ المُشَايِحِ وفارجُ الأَمر المهمِّ الفادح

والمسالح : جمع مسلحة ، وهى الثغر . واللبان : الصدر . والمشايح : المقاتل . وخرج إليه هُرْمز أحد أمراء الفرس وكان متوّجاً ، فأسره غالب ، وأسلمه إلى القائد سعد بن أبى وقّاص ، وانصرف إلى مطاردة الفرس والقتال . وأبلى القعقاع ابن عمرو التميمى بلاء حسناً فى هذه المعركة ، ويقال إنه حمل فيها ثلاثين حملة ، وفى كل حملة يقتل فى الفرس ويفتك بهم ، وكان فى أثناء ذلك يرتجز :

أُزْعِجهم عمداً بها إزعاجا أطعن طَعْنًا صائباً ثَجّاجا
أرجو به من جنّةٍ أفواجا

obeikandi.com

والثجاج : السائل بالدماء المنهمرة . وكلمة أفواجا قلقة فى مكانها ، ولكنها السرعة فى إلقاء الكلام ونظمه فى أثناء الحرب . وكان حينئذ عشرة إخوة من بنى كاهل بن أسد ، يقال لهم بنو حرب ، يشتركون فى المعركة . فجعل أحدهم يرتجز مخاطبًا أخاه عِفَاقًا بقوله :

أنا ابنُ حَرْبٍ ومعى مِخْراق　　أضربهم بصارمٍ رَقْـراقِ

إذ جاشتِ النفسُ على التَّراقى　　صَبْرًا عِفاقُ إنه الفراقُ

والمخراق : السيف أو أداة الحرب . والصارم : السيف القاطع . والإقواء فى البيت الثانى واضح ، فقد خالف الراجز بين حركتى الروى فى البيتين بحكم السرعة فى الارتجاز والإنشاد . وكل هؤلاء شعراء اللحظات الحربية فى معارك الفتوح ، لم يعرفوا بالشعر ونظمه قبلها ، وهم لذلك مجهولون لنا أو كالمجهولين . وحتى الطبرى ورواته لم يهتموا بذكر اسم الشاعر ابن حرب ، فحسبه أنه من عامة الجند ، وهو ليس من أصحاب الصناعة الشعرية ، إنما هو رجز سريع يفد على خاطره فينطقه دون تعمل لفن أو ما يشـبه الفن ، وهو لذلك يعد عملا شعبيًّا من أعمال الجماعة العربية الكبيرة المجاهدة فى سبيل الله . ولعله من أجل ذلك نجد الرواة يختلفون فى نسبة كثير من أشعار الفتوح إلى أصحابها فهم ينسبونها إلى هذا الجندى أو ذاك من المجاهدين ، وكأنما عزَّت عليهم نسبتها الحقيقية ، أو قل كأنما شعروا أنها من عمل الفاتحين جميعا ، فلم تهمهم نسبتها إلى هذا أو ذاك منهم . ونراهم ينشدون أشعاراً كثيرة دون أن يعنوا بذكر اسماء أصحابها ، مكتفين بمثل : « وقال بعض الشعراء » أو « وقال شاعر فى ذلك » . وتهاوى الجيش الفارسى تحت أقدام العرب فى معركة القادسية ، وولَّى الفرس الأدبار مخلفين وراءهم ثلاثين ألف قتيل غير آلاف الأسرى وغير الغنائم الوفيرة من السلاح وغير السلاح . وكانت الجزيرة العربية جميعها تنتظر أخبار هذه المعركة ، حتى يقال إن الرجل كان إذا عُرض عليه أمر قال لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من معركة القادسية . ولما زُفَّت إلى الجزيرة بُشرى النصر أخذ الرجال والنساء يتغنون به ، وكل قبيلة تتغنى ببلاء أبنائها ، تتغنى النَّخَع وغيرها من القبائل اليمنية وتميم وغيرها من

القبائل المضرية . وشاعت حينئذ مقطوعتان كانتا تغنَّيان وتنشدان على كل لسان دون أن يعرف الناس مَنْ نظمهما ، أما الأولى فكانت تُغَنَّى باليمن مشيدة ببطولة النخع فى المعركة ، ومنها :

فحيَّتكِ عنى عُصْبةٌ نَخَعِيَّةٌ ... حِسانُ الوجـوه آمنـوا بمحمَّدِ
أقاموا لكسرى يضربون جنودَه ... بكل رَقيق الشَّفْرَتَيْنِ مهنـَّدِ

وأما الثانية فكانت تغنَّى باليمامة مشيدة ببنى تميم وبلائهم فى معركة ، القادسية على هذا النمط :

وجدنا الأكثرين بنى تميمٍ ... غداةَ الرَّوْعِ أَصْبَرَهم رجالا
بحورٌ للأكاسر من رجالٍ ... كأُسْدِ الغاب تحسبهم جِبالا
تركن لهم بقادسَ عِزَّ فَخْرٍ ... وبالخَيْفين أياما طِـوالا

ويعقِّب الطبرى على المقطوعتين بقوله : «وسُمع بنحو ذلك فى بلاد العرب» . وكأن أغانى كثيرة تمجد بسالة المجاهدين فى القادسية ذاعت فى الجزيرة وشاعت على كل لسان حينئذ دون أن يُعْرف ناظموها : أغان حماسية كانت تتجاوب بها الجيوش الفاتحة وتَسْرى سريان البرق منها إلى الجزيرة ، وكأنما غدت تشبه أمثال الشعب ، فناظمها مجهول لأنه من أبناء العامة ، وهم قلما اهتموا بأن ينسبوا إليهم فضلا فى شعر أو غير شعر ، لأنهم آخر من يفكر فى نسبة فضل إلى نفوسهم :

وليس هذا كل ما يلاحظ فى شعر الفتوح ، فإنه يلاحظ أن كثيراً منه كان ينظم من بحر الرجز ، لأنه أسهل بحور الشعر ، ومعروف أنه أكثرها قابلية للتجزئة والتعديل ، وكان كثير الدوران فى حُداء العرب من قديم وفى مبارزة الأقران فى الحروب ، فكان طبيعيًّا أن يكثر جريانه على ألسنة الجنود المحاربين فى مقطوعاتهم القصيرة . وهو بدون ريب يؤكد الطوابع الشعبية لهذه المقطوعات لسهولة لغتها ويسرها ، فما هى إلا أن يسلّ الجندى المحارب سيفه للقتال حتى تفد على خاطره شطور من الرجز يقذف

obeikandl.com

بها دون معاناة أو مكابدة ، كما يقذف بسهمه أو يضرب بسيفه ورمحه فى عجلة دون رَيْث أو إبطاء .

وعلى هـــذا النحو أنتجت الفتـــوح الإسلامية شعراً امتاز بطوابع شعبية كثيرة ، وقُلْ ذلك نفسه فى أشعار موقعة صِفِّين مما رواه نصر بن مزاحم ، وكذلك فيما رواه الطبرى من أشعار فى حروب العرب مع الترك فى أواسط آسيا طوال العصر الأموى . فقد كانت تجرى على كل لسان أشعار كثيرة فى كل معركة ، ولم يكن الشعراء يعاودون النظر فى أشعارهم ولا كانوا ينقّحونها أو يهذبونها ، إذ كانت عامة الجنود هم الذين ينظمونها غير مهتمين بتدقيق فى معنى أو فى لفظ أو فى وزن أو فى قافية ، أشعار هى بنت اللحظة العاجلة ، نُظمت فى لغة يسيرة دون احتفال بتنقيح أو صقل أو ما يشبه الصقل والتنقيح .

وإذا مضينا فى العصر الأموى وجدنا الأحزاب السياسية تنشأ ، ووجدنا لكل حزب شعراءه الذين ينحازون إليه ويدعون له ويدافعون عنه باليد واللسان ، فللحزب الزبيرى شعراؤه وفى مقدمتهم ابن قيس الرُّقَيَّات ، وللحزب الشيعى شعراؤه وفى مقدمتهم الكُمَيْت ، ولحزب الخوارج شعراؤه الكثيرون أيضًا وفى مقدمتهم قَطَرِىّ بن الفُجاءة وزوجته أم حكيم . وانحاز الأخطل والفرزدق وجرير إلى بنى أمية . وأخذ كل هؤلاء وأضرابهم يحامون عن أحزابهم ويعنون بالدعاية لها . وكانت القضية التى انقسم الشعراء والناس من حولها أحزاباً هى قضية العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وأى الأحزاب يمكن أن يحققه للأمة . أما الحزب الزبيرى الذى تكوَّن بمجرد موت معاوية بزعامة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب واليه على العراق فكان يرى أن يُرَدّ الأمر إلى قريش بالحجاز ، حتى يعود الحـــكم كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين العدول ، فلا يستأثر به بنو أميه فى دمشق وأنصارهم هناك من عرب الشام اليمنيين الذين أصبح لهم كل السلطان وتحولت إلى حجورهم أموال الأمة ، وغدوا يتحكمون فى رقاب الناس ، فإذا هم يستبيحون المدينة ثلاثة أيام فى موقعة الحَرَّة لعهد يزيد بن معاوية ، وإذا هم يسفكون دم الحسين الطاهر ودماء أسرته فى الطَّفِّ بكربلاء ، وآن أن يعود الأمر إلى نصابه وأن

يكون مركز الخلافة فى الحجاز وأن يتولاها عبد الله بن الزبير الخليفة العائذ بمكة ، وإلى ذلك يشير ابن قيس الرقيات فى مديحه لمصعب قائلا :

حَبَّذَ العَيْشُ حين قومى جميعٌ ... لم تفرِّق أمورَها الأهواءُ
إنما مصعبٌ شهابٌ من الله ... بِهِ تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
كيف نَوْمى على الفِراش ولمَّا ... تشمل الشامَ غارةٌ شَعْوَاءُ

وهو يأسى للمصير الذى صارت إليه قريش ، فقد تفرقت شيعًا وبُلْداناً حتى طمع فيها كثير من الطامعين ، ويمدح مصعبًا بأنه قبس من الله ، ليؤكد حقه وحق أخيه فى الخلافة والحكم ، ويتوعد الشام بحرب ساحقة تمحق الأمويين وأنصارهم من كلب والقبائل اليمنية محْقًا . ولم يكن مثل هذه الأبيات لابن قيس الرقيات يشيع بين الحزب الزبيرى وحده ، بل كان يتطاير منه شرر كثير إلى دمشق والحزب الأموى ، فيملأ عبد الملك بن مروان حقداً عليه وضغينة . وعرف ذلك ابن قيس الرقيات ، فلما قضى عبد الملك على عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ودانت له العراق والحجاز اختفى ابن قيس خوفاً وإشفاقاً على نفسه أن ينتقم منه ويقتله ، وظل مختفياً عاماً كما يقول الرواة ، وأحدٌ لا يستطيع أن يطلب له العفو من عبد الملك لأن ذنبه فى التأليب عليه كان عظيمًا ، إذ كان لسان الحزب الزبيرى وأكبر دعاته . ومازال مختفيًا حتى شفع له عبد الله بن جعفر بن أبى طالب كبير الهاشميين فى المدينة ، ويقال بل راسل عبد العزيز ابن مروان كى يشفع له عند أخيه عبد الملك ، فأرسل إلى ابنته « أم البنين » زوجة الوليد بن عبد الملك ، أن تشفع فيه ، وكان عمها لا يردّ لها طلباً ، وقُبلت شفاعتها . ومثَل بين يدى عبد الملك معتذراً ، فأخذ يعاتبه على مدائحه لمصعب منشداً منها أبياتًا . وفى ذلك ما يدل على مدى تأثير شعر ابن قيس الرقيات ، حتى ليحنق عليه عبد الملك كل هذا الحنق الشديد . وكأنما كانت حناجر الشعب ترتفع بأشعار ابن قيس الرقيات حتى تصل إلى سمع عبد الملك ، فيمتلئ عليه غيظًا وموجدة .

وكان الشيعة يرون أن تُردَّ الخلافة إلى آل البيت حتى يحقّقوا العدل الذى طال انتظاره على الرعية وينحّوا عنها الظلم الذى انتشر فى كل مكان ، وكانوا يرون

الهاشميين أحقّ الناس بها لأنها ميراثهم عن الرسول عليه السلام، ويرونها من حق أبناء على بن أبى طالب خاصة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بها – فى رأيهم – إلى على بن أبى طالب حين نزل معه ومع الصحابة على غدير خُمّ بين مكة والمدينة ، إذ قال له : إنك منى بمنزلة هرون من موسى . وفى ذلك يقول الكُميْت :

ويومَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَديرِ خُمٍّ　　　أبانَ له الولايةَ لو أُطيعا

ويُبدئ الكميت ويُعيد فى أن الإمام الشيعى – وكان يدعو لزيد بن على ابن الحسين – يتميز بالكرم والشجاعة والزهد والعلم ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتميز أيضاً بالعدل الذى لا تستقيم حياة الناس ولا تطيب بدونه ، إذ يصبحون سواسية فى الحقوق وفى مواجهة الحياة والاستمتاع بما فيها من نعيم ، بحيث لا يستأثر أحد بشىء دون سواه . ويقارن الكميت دائماً بين إمامة زيد ابن على وإمامة غيره من خلفاء بنى أميةِ ، فيصفهم بالظلم وأنهم يسوسون الرعية سياسة جائرة ، وكأن الرعية غنم لهم يجُزّون أصوافها ويسيغون ألبانها ويأكلون لحومها لا يرعون فيها عهداً ولاذمة ، فضلا عما يبتدعونه كل عام من البدع المنكرة ، وفضلا عن تعطيلهم أحكام الدين وحدوده ، يقول :

وعُطِّلَتِ الأَحكامُ حتى كأننا　　　على ملَّةٍ غيرِ التى نَتَنَحَّلُ
فتلكَ ملوكُ السُّوءِ قد طال ملكهم　　　فحتَّامَ حتَّامَ العناءُ المطوَّل
وما ضربَ الأَمثالَ فى الجَوْرِقَبْلَنَا　　　لأَجورَ من حُكَّامنا المتمثِّلُ

وكان الشيعة فى كل مكان : فى العراق وخراسان والحجاز يردّدون هذه الأبيات وأمثالها من أشعار الكميت . وأحسّ الأمويون وواليهم فى العراق يوسف ابن عمر الثّقفى خطراً شديداً فى أشعار الكميت ، لأنه لا يدعو فيها للعلويين فحسب ، بل أيضاً يدعو للثورة على بنى أمية ثورة تأتى عليهم وتمحوهم من الأرض محواً . وما زال يوسف الثقفى يطلب من الكميت غِرَّة ، حتى تهيأت له فقتله . ويشهد هذا القتل بمدى سيرورة شعر الكميت لا بين الشيعة فحسب ، بل بين الناس جميعاً وخاصة فى العراق . وكان لا يزال يرسل من موطنه فى الكوفة إلى أهل خرسان بمدينة مَرْو بأشعار أشبه ما تكون بمنشورات ثورية .

أما حزب الخوارج فكان ينادى بأن لا تُقْصَر الخلافة على قريش بل تُرَدّ إلى الأمة لتختار بنفسها أكفأ أبنائها ، فتتحقق بذلك المساواة ويتحقق العدل الذى حُرمت الرعية منه ، إذ يتولاها خير الأمة ورعاً وتقوى ، ولو كان عبداً حبشيًّا . وذهبوا إلى أن الجماعة الإسلامية برضاها عن الخلفاء الأمويين ضَلَّت الطريق ، ولذلك ينبغى قتالها ، ومضوا يجاهدونها بالسيف جهاداً عنيفًا فى فارس والعراق واليمامة وعُمان وحضرموت واليمن . وبذلك كان شعرهم شعر ثوّارٍ ترافقهم السيوف فى غدوّهم ورواحهم ويسلُّونها صباح مساء . وآمنوا بأن الإسلام يموت فى كل مكان إلا فى معسكراتهم وبأنه يجب جهاد الأمويين والأمة معهم حتى الموت ، وحتى يفوزوا برضوان الله — فى رأيهم — وبثوابه من نعيم الجنان . ومن أجل ذلك نراهم فى أشعارهم يطلبون الاستشهاد ويستعذبونه مستبطئين له ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم إلى الفردوس ، مما جعلهم لا يبكون قتلاهم ، بل يمجدونهم ، كما جعلهم يزهدون فى الدنيا ونعيمها الزائل . ودائماً حماسة وظمأ شديد إلى القتال ، وتهافت عليه ، واستماتة ليس بعدها استماتة ، حتى ليقول قطرى قطعته الحماسية المعروفة مناجيًا نفسه :

أقول لها وقد طارتْ شَعاعًا ... من الأبطال وَيْحَكِ لن تُرَاعِى
فإنك لو سألتِ بقاء يومٍ ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصَبْرًا فى مجال الموت صَبْرا ... فما نيلُ الخلود بمستطاع
وما للمرء خيرٌ فى حيـــاة ... إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاع

وهو يستهين بالحياة فالموت غاية كل حى ، وما أشبه الحياة بثوب يطوى فى أى ساعة ، فحرى به وبأمثاله من الخوارج أن يقاتلوا حتى يستشهدوا فى سبيل عقيدتهم. وقد ظل ينازل الأمويين وقوادهم فى بسالة نادرة . وكانت زوجته أم حكيم لا تقل عنه شجاعة ولا بسالة ، وكانت لا تزال تحارب بجواره وتصول وتجول مرتجزة بمثل قولها :

أحملُ رأسًا قد سئمتُ حَمْلَهْ ... وقد مَلِلْتُ دَهْنَهُ وغَسْلَهْ
ألا فَتًى يحملُ عنى ثِقْلَهْ

وهى ترى الحياة أمامها مملّة مللا فظيعًا ، وتتمنى لو استشهدت ، وتشعر كأن رأسها الذى تريد أن يزايل جسدها عبء ثقيل تحمله ، وهى تريد الخلاص منه ، حتى تحظى بالنزول فى فراديس الجنان . وهذه البطولة الخارقة للخوارج جعلت الناس يتعلقون بأشعارهم . ونجد عندهم الظاهرة التى لاحظناها فى شعر الفتوح ، ونقصد ظاهرة الاضطراب فى نسبة مقطوعات الخوارج الشعرية إلى أصحابها . ومن يرجع إلى معركة يوم دولاب التى انتصر فيها قطرى على بعض الجيوش الأموية والتى رواها أبو الفرج فى كتابه الأغانى يجد مقطوعة حماسية لأحد شعرائهم اختلف الرواة فى ناظمها ، فقيل هو قَطَرِىّ ، وقيل هو صالح بن عبد الله العَبْشَمِىّ ، وقيل هو عمرو القَنا ، وقيل : بل هو حبيب بن سهم . وكأن ناظم المقطوعة لم تعد له أهمية ، إنما الأهمية للمقطوعة نفسها ، فقد تداولها الناس ، وأصبح لها ضرب من الشعبية دون أى عناية بمن صاغها وجرت على لسانه .

وهؤلاء الشعراء جميعاً وأمثالهم من المنتمين للأحزاب السياسية ، كانوا يعيشون لا لنفوسهم وإنما لجماهير أحزابهم ، فعنها يتكلمون ولها ينظمون ، وباسمها يصيحون فى وجوه الأحزاب الأخرى ، مجاهدين دائماً بألسنتهم ، ومجاهدين أحياناً مع ألسنتهم بسيوفهم . على نحو ما كان يجاهد الخوارج . وكان يقابل هذه الأحزاب جميعاً حزبُ الدولة وكان جمهور شعرائه ضخما ، وكانت الدولة تنثر أموالها عليهم نثراً ، ينثرها الخلفاء والولاة . ويكفى أن نشير إلى ما أخذ جرير من عبد الملك فى قصيدته الحائية حين أنشدها بين يديه ، إذ يقال إنه أمر له بمائة ناقة حَلوب وبثمانية من الرعاة ، لما عرف من روعة القصيدة وأنها ستذيع على كل لسان لجمال موسيقاها . وكان جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من شعراء بنى أمية أشبه ما يكونون بالصحف فى عصرنا أو بوسائل الإعلام ، فهم الذين يسجلون أعمال الدولة ومناقب الخلفاء ويذيعونها فى الأمة . ولذلك أجزل لهم الأمويون فى العطاء فهم دعاتهم فى الشعب ، وهم بذلك كانوا شعراء سياسة مثلهم مثل شعراء الأحزاب السابقة . وكانت مدائحهم تذيع فى العراق موطن الخصومة لبنى أمية ، ولذلك عنوا بتقريبهم منهم . وكان جرير أكثرهم قرباً من الشعب فى لغته : وصوّر ذلك ابن سلام حين سأله سائل أى البيتين

فى مديح عبد الملك والأمويين أجود ؟ بيت جرير فى قصيدته الحائية آنفة الذكر :

ألستم خَيْرَ مَنْ ركب المطايا وأنْدَى العالمين بُطُونَ راح

أم بيت الأخطل :

شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلامًا إذا قَدروا

فقال : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرْزن . فقال له السائل : صدقت ، وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصة والعامة . فشعر جرير كان أكثر سيرورة وانتشاراً من شعر الأخطل فى نفوس الناس وعلى ألسنتهم لجمال أنغامه وألحانه .

وبالمثل كان الهجاء يذيع فى الناس ويتناقلونه ، وحقًّا ما قاله الرسول عليه السلام حين استمع إلى هجاء حسان لقريش : إنّ وَقْع هجائك عليهم أشد من وقع النَّبْل . وعلى شاكلة قريش كان العرب جميعاً ، وويل لمن كان يعرض له كبار الهجائين فى العصر ، فقد كانوا يُنزلون به أقبح الوَصْم وأشنع الثَّلب ، فتلوكه الألسنة ويصبح مضغة للأفواه : أفواه الكبار والصغار . ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن محمد بن حسان بن سعد والى الخراج بالكوفة فى هذا العصر ، فقد تعرَّض له الحكم بن عَبْدل الشاعر الكوفى يسأله أن يضع عن شخص ثلاثين درهماً من خراجه ، فردّه مغضبًا ، وإذا هو يرميه بقصيدة من هجائه اللاذع يقول فيها .

رأيتُ محمدا شَرِهًا ظَلُوما وكنت أراه ذا وَرَعٍ وقَصْدِ

يقول : أماتنى ربِّى خِداعا أمات اللهُ حسانَ بن سَعْدِ

وذاعت القصيدة فى كل أركان الكوفة وعلى جميع الألسنة ، حتى كان المُكارى يسوق بغله أو حماره فيقول : « عدِّ : أمات الله حسان بن سعد » . وحدث أن خطب محمد بن حسان فتاة من أسرة كريمة هى أسرة قيس بن عاصم أحد سادة تميم فى الجاهلية والإسلام ، وسمع بذلك ابن عَبْدل ، فأفسد الخطبة بأشعار منها قوله :

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه   أبو المسك من أكفاء قيس بن عاصمِ
خُذى دِيَةً منه تكن لكِ عُدَّةً   وجِيئى إلى باب الأمير فخاصمى

وأنِفَت الفتاة أن تتزوج محمد بن حسان مهجوَّ ابن عَبْدل ، وأنفت لها عشيرتها وردّته ردًّا قبيحاً. وفى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — مدى تأثير الهجاء فى نفوس الناس من جهة ومدى انتشاره وشيوعه بين العامة والخاصة من جهة ثانية.

وتفرَّع حينئذ من الهجاء فنٌّ يُعَدُّ من أكثر الفنون الشعرية تعقيداً ، وهو فن النقائض ، وكان ملهاة للشعب بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، على نحو ما تصوِّر ذلك نقائض جرير والفرزدق . ولكى يتضح لنا ذلك لابد من الوقوف قليلا عند التطور الذى حدث فى حياة العرب حين نزلوا فى المدينتين العراقيتين الكبيرتين : البصرة والكوفة اللتين أمر عمر بن الخطاب بتأسيسهما أو اختطاطهما للجيوش المحاربة فى الشرق ، فقد أخذ العرب يعيشون فيهما معيشة مدنية جديدة يقدمها لهم الفرس وغيرهم من الموالى ، إذ ملأت الفتوح ورواتب الدولة حجورهم بالأموال فابتنوا القصور ، واتخذوا الرقيق والجوارى ، وقاموا على خدمتهم فى جميع جوانب حياتهم خدمة نقلتهم من حياة البداوة الخشنة إلى حياة الحضارة الناعمة . وسرعان ما شعروا بالفراغ والتعطل على عادة سكان المدن . وهو شعور يؤهل دائمًا لنشاط الحياة العقلية والفنية ، إذ يضطر أهل المدن بسبب الفراغ الهائل فى حياتهم إلى العناية بالثقافة وببعض ضروب الفن ، حتى يقطعوا جوانب من أوقات هذا الفراغ أو حتى يملئوها . وهو ما حدث فعلا فى المدينتيين العراقيتين الكبيرتين المنشأتين ، إذ أخذ أهلهما يُعْنَوْن بالدراسات الدينية والأدبية وتطلعوا — كما هو معروف — إلى التزود بالثقافات الأجنبية . وبجانب ذلك أخذوا يُعْنَوْن بفن جديد يلهون به ويملئون جانباً من أوقات الفراغ الهائلة التى يشعر بها أهل المدن ، والتى جعلت أثينا قديماً تُعْنَى بالمسرح وبالشعر قصصياً وغنائيًّا وتمثيليًّا . ولم يكن الفن الجديد الذى عُنيت به البصرة والكوفة سوى النقائض ، وخاصة عند شاعريها البصريين الكبيرين : جرير والفرزدق ، إذ استطاعا أن ينفذا من خلال فن الهجاء إلى هذا الفن الحديث ، وأن يتطورا به تطوراً واسعًا ، بحيث يصبح مادة حقيقية فى البصرة للهو والتسلية وقطع أوقات الفراغ . وبمجرد

أن نعرف أن جريراً التميمى كان يقف فى نقائضه أو فى أهاجيه مع الفرزدق التميمى ، مدافعاً لا عن قبيلته تميم ، وإنما عن قبيلة مخاصمة لها هى قيس يتضح لنا توًّا أننا لسنا بإزاء فن الهجاء العام وإنما نحن بإزاء فن جديد أقرب إلى أن يكون مناظرة بين الشاعرين التميميين ، فالفرزدق يدافع أو يناظر عن تميم ، وجرير يدافع أو يناظر عن قيس ، دفاعاً حاراً لمدة أربعين سنة أو تزيد . وقد اتخذا من سوق المِرْبد بجوار البصرة مسرحاً لهذه المناظرة الكبيرة فكانا يختلفان إلى هذه السوق ويختلف معهما الناس ، ليسمعوا إليهما وليقطعوا بعض أوقات الفراغ .

وقد يبدو أننا نغلو حين نزعم أن النقائض كانت ملهاة للشعب ، ولكن من يدرسها ويتعقب أخبارها عند جرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء الذين كانوا يزاولون هذا الفن يعرف أن جمهور البصرة فى سوق المِرْبد وكذلك جمهور الكوفة فى سوق الكُناسة كانا يتحلَّقان حول الشاعرين المتناقضين للفرجة عليهما وللهو والتسلية ، ويورد عليهما الشاعران من الهجاء المقذع الساخر ومن الفكاهات اللاذعة ما يجعلهما يغرقان فى الضحك . وكثيراً ما يفضى الجمهور إلى التصفيق حين يعجبه بيت عند الشاعر ، وقد يفضى إلى الصفير والصياح . وعلى هذه الشاكلة كانت النقائض فنًّا يُراد به تزجية أوقات الفراغ لسكان البصرة والكوفة ، وعلى نحو ما نذهب الآن لدور التمثيل والخيالة نلهو بعض الوقت ، أو كما نذهب إلى ناد رياضى للفرجة على لعبة كرة القدم ورؤية أى الفريقين اللاعبين يهزم صاحبه بلعبه المتقن كان أهل البصرة يذهبون إلى المِرْبد للفرجة على لعبة النقائض التى كان يتقاذف سهامها جرير والفرزدق ، والجمهور تارة يشتد صياحه وتهليله واستحسانه ، وتارة ثانية يشتد صفيره واستهجانه . ويلقانا ذلك مراراً وتكراراً فى أخبار جرير الفرزدق وفى أخبار غيرهما ممن كانوا يتناقضون . من ذلك ما روى فى أخبار أبى النجم والعَجَّاج من أنهما تواقفا فى المِرْبد يتناقضان ، ومضى أبو النجم ينشد نقيضته فى العجاج حتى بلغ إلى قوله : « شيطانه أنثى وشيطانى ذكر » فتعلق الناس بالشطر وتصايحوا وهرب العجاج خجلا واستحياء . وفى أخبار جرير خبر طريف يصور مجالس هذه النقائض فى المربد وتجمع الناس لسماعها ، وانتظارهم البيت السامّ القاتل ، فقد روى

الرواة أن الراعى شاعر بنى نُمَيْر فى نجد وفد على سوق المِرْبد ، فاستمع إلى الفرزدق وجرير ، ولم يلبث أن انحاز إلى أولهما قائلا :

يا صاحبيَّ دَنَا الرَّوَاحُ فسِيرَا غَلَبَ الفرزدقُ فى الهجاء جريرا

وشاع البيت واستمع إليه جرير ، فغضب غضباً شديداً ، ومضى فنظم نقيضة بائية مريرة فى الراعى والفرزدق جميعاً ، وانتظر حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم بسوق المِرْبد ، وكان له مجلس فيه وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُهْنٍ (طيب) وجمع شَعْره ، وضمّ أطرافه ، وكان حسَن الشَّعر ، ثم قال لغلامه : ياغلام أسْرِج (شُدَّ السَّرْج) لى فأسرج له حصاناً . ثم قصد مجلس الفرزدق والرَّاعى ، فتوجَّه إلى الرَّاعى ، يقول له : أبعثك نَسْوَتُك تُكسبهنّ المال بالعراق ، أما والذى نفسُ جرير بيده لترجعنَّ إليهنَّ بِمَيْرٍ (تجارة) يسوءهن ولا يسرهن ، ثم اندفع ، فأنشد قصيدته ، وفيها قال للراعى بيته الذى سقط به وبقبيلته بنى نُمَيْرٌ من حالق إلى الحضيض :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلاَ كعبًا بلغتَ ولا كِلابا

ونهض الراعى من مجلس الفرزدق يغشاه الصَّغار والهوان ، وركب توًّا إلى منازل قبيلته . بنى نُمَيْر فى نجد ، وهو يردد : فضحنا والله جرير . وما كان أشد دهشته حين هبط فى ديار قومه ، فوجد القصيدة سبقته إليهم ، وسبقه بيتها السالف المقذع ، وهم يصيحون به : هذا شؤمك . وللخبر دلالات كثيرة ، فهو يدل على أن شاعر النقائض فى البصرة كان يحتفل — قبل ذهابه إلى سوق المربد لإنشاد شعره — بثيابه وهيئته وزينته ، وأنه كان له مجلس معروف يجتمع فيه الناس من حوله ، ليستمعوا إلى شعره بين التهليل والتصفيق ، وأيضا فإن ما كان ينشده من الهجاء كان يذيع لا فى البصرة وحدها ، بل أيضاً فى نجد . وهو ما يؤكد أن النقائض كانت تحمل من الطوابع الشعبية ما يجعلها تَسْرى فى القبائل العربية سريان البرق ، إذ سرعان ما تحملها الألسنة إلى كل مكان . وكان من أهم ما أتاح لها هذه الطوابع ما كان يودعه فيها الفرزدق وجرير من أبيات لاذعة ، كبيت جرير السالف فى بنى نُمَيْر والراعى ، ولهما فى ذلك طُرَفٌ

كثيرة من مثل قول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِى الوعيدَ ولا يحوطُ حريمَهُ كالكلب يَنْبَحُ من وراء الدَّارِ

وقوله :

أَتعــدلُ أَحسابًا لئامًا أَدِقَّةً بأَحسابنا إِنِّى إِلى الله راجعُ

وكان جرير أشد لذعا وإيلاماً فى أهاجيه ، وله فى الفرزدق أبيات كثيرة يسخر منه فيها سخرية شديدة من مثل قوله الذى لايزال يدور على الألسنة :

زعمَ الفرزدقُ أَنْ سيقتُل مِرْبَعًا أَبْشِرْ بطول سلامةٍ يامِرْبَعُ

وقوله :

وإنك لو تعطى الفرزدقَ درْهمًا على دين نَصْرَانيَّةٍ لتنصَّرا

وهو يشير بذلك إلى وقوف الفرزدق مع الأخطل النصرانى ضده . وكانت بينه وبين الأخطل معارك هجائية حامية الوطيس ، وكان يتفوق عليه فى سهام الهجاء اللاسعة لسع الأفاعى كما تفوق على الفرزدق ، إذ كان ينقضُّ عليهما انقضاض الطير الجارح على فريسته بأبياته اللاذعة المريرة التى كانت تذيع فى الناس ذيوعاً واسعاً . وقديماً شهد له خصماه الكبيران بذلك ، فقد روى الرواة أن الأخطل اجتمع يوماً مع الفرزدق فقال له : إن جريراً أُوتى من سَيْر الشعر ما لم نُؤْتَه ، قلت أنا بيتا ما أعلم أحداً قال أهْجى منه ، قلت فيه وفى قومه فى وصف شحِّهم وبُخْلهم :

قومٌ إذا استنبحَ الأَضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأُمِّهمِ بُولى على النارِ

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال جرير :

التَّغْلبيُّ إذا تُنُبِّحَ للْقِرَى حكَّ اسْتَهُ وتمثَّل الأَمثالا

فلم تبق سُقاة ولا أمثالها إلا رَوَوْه . فشعره ، وخاصة هجاءه ، كان أكثر سيرورة من شعر صاحبيه بشهادتهما . ومما يصوِّر ذلك من بعض الوجوه أنه كان يتناقض مع عمر بن لجأ شاعر تَيْم ، فعلا عليه ، وهزمه هزيمة مرة ، لما كان

يرميه به من سهام قاتلة ، من مثل قوله فيه وفى قومه :

قومٌ إذا حضَر الملوكَ وفودُهم نُتِفَتْ شواربُهم على الأبوابِ

وإذا كان شعر النقائض بقصائده الطويلة المعقدة اتخذ صورة شعبية فى العصر الأموى فإن شعر الغزل والحب فى الحجاز ومدينتيه الكبيرتين : مكة والمدينة كان أولى منه بذلك لملامسته القلوبَ وترجمته عن مشاعر إنسانية أكثر عمقا واتساعاً وتأثيراً فى الناس . وقد كثر ناظموه فى المدينتين وفى مقدمتهم عمر بن أبى ربيعة والعَرْجىّ وابن قيس الرُّقَيَّات فى مكة والأحوص فى المدينة ، ونرى الناس هناك يُشغفون به شغفاً شديداً ، يُشْغَفُ به الشباب والشيوخ والنساء والرجال ، حتى النساك والفقهاء شُغفوا به ، ففى أخبار عبد الله بن عباس المفسر المشهور للقرآن الكريم أنه كان يوماً فى المسجد الحرام بمكة وعنده نافع بن الأزرق وبعض أصحابه من الخوارج فى العراق يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين مورَّدين حتى دخل وجلس ، فتعرَّض له ابن عباس يسأله أن ينشده بعض ما نظمه من غزل ، فأنشده قصيدته :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمُهَجِّرُ

حتى أتى على آخرها ، فأقبل ابن الأزرق على ابن عباس ، فقال : الله يابن عباس ! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحلال والحرام ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك قصيدة يقول فيها :

رأتْ رجلا أما إذا الشمسُ عارضتْ فيَخْزَى وأما بالعَشِىِّ فيَخْسَرُ

وكان نافع قد حَرَّف البيت ، فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، فقال نافع : فكيف قال ؟ فقال ابن عباس : قال :

رأت رجلا أما إذا الشمسُ عارضتْ فيَضْحَى وأما بالعَشِىِّ فيَخْصَرُ

ويضحى : يدفأ . ويخصر : يبرد . فقال له ابن الأزرق : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال ابن عباس : أجل وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك

إياها ، قال ابن الأزرق : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ، ثم أقبل على عمر بن أبي ربيعة ، فقال له أَنْشِدْ ، فأنشده :

تَشُطُّ غـدا دارُ جِيرانِنا وللدَّارُ بعـد غدٍ أَبْعَدُ

وكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول لتلاميذه وأصحابه : هل أحدث ابن أبي ربيعة شيئا . وإذا كان ابن عباس مع وقاره ومنزلته فى الدراسات الدينية ومجلسه فى حلقته بين سائليه من فقهاء الخوارج وغيرهم من تلاميذه يتركهم ليستمع إلى ما أحدث ابن أبي ربيعة من غزل ، ولا يكتفى بسماعه ، بل يديره فى نفسه ويستظهره ، فغيره من أهل مكة وشبابها كان أكثر منه إعجاباً وتعلقاً بغزل ابن أبي ربيعة وما ينظم فى الحب ووقائعه . وكان من وراء ابن عباس من نُسَّاك مكة والمدينة من يُشْغَفُون مثله بهذا الغزل ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن أبي السائب المخزومى ناسك المدينة المشهور ، الذى كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة ، من أنه مضى متنزها مع بعض أصحابه إلى العقيق فى ضواحى المدينة ، وحدث أن أنشده أحدهم قول العَرْجِيّ :

باتا بأنعم ليـلةٍ حتى بدَا صُبْحٌ تلوَّحَ كالأَغرِّ الأَشْقَرِ
فتلازما عند الفِراق صبابةً أَخْذَ الغَرِيم بفضل ثوبِ المُعْسِرِ

وتلازما : اعتنقا . والغريم : الدائن . وصاح أبو السائب بالمنشد أن يعيد البيتين ، وأقسم أن لا ينطق بحرف غيرهما حتى يرجع إلى داره . ولقيه عبد الله بن الحسن ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازما عند الفراق صَبَابَةً أَخْذَ الغريم بفضل ثوبِ المُعْسِرِ

فالتفت عبد الله إلى رفيق لأبي السائب ، فقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ فقال : منذ الليلة ، فقال إنا لله ، وأى كهل أصيبتْ منه قريش ! ثم مضى أبو السائب ورفيقه . فلقيهما محمد بن عمران قاضى المدينة ، فسلَّم ، ثم قال : كيف أنت ياأبا السائب ، فقال :

فتلازما عند الفراق صَبَابَةً أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المعسرِ

فالتفت محمد بن عمران إلى رفيقه ، فقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ فقال : آنفا . ولما أراد الانصراف قال له رفيق أبى السائب أتدعه هكذا ؟ والله ما آمن أن يسقط فى بعض آبار العقيق قال : صدقت ، ياغلام هات قيد البغلة ، فأخذ القيد ووُضع فى رجله ، وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه ، يُريه أنه يفهم قصته . ثم نزل القاضى وقال لغلامه . احمله على بغلتى وألحقْه بأهله . وإذا كان أبو السائب على نسكه وتقواه يطرب للغزل هذا الطرب الشديد ، فغيره من الفتيان والشباب كان يطرب طربا أشد حين يستمع إلى غزل العَرْجى وغيره من شعراء مكة والمدينة . ولعل ذلك ما جعل نُسَّاك المدينتين وفقهاءهما يسهمون فيه على نحو ما نجد عند عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة أحد فقهاء المدينة السبعة الذين كانت تُشَدّ إليهم الرحال من أقاصى العالم الإسلامى للفُتْيا فى الفقه ومسائل الدين ، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة ثم انفصل عنها ، وكان يحبها حبًّا شديداً ، وازداد به الحب بعد الانفصال ، واستحال ذلك على لسانه غزلا رقيقا ، روى منه أبو الفرج فى ترجمته له — بكتابه الأغانى — أطرافا تصور لواعج شوقه وآلامه . ويلقانا فقيه ثان فى المدينة هو عروة بن أذَيْنة ، ولم يكن يكتفى بالنظم فى الحب والغزل ، بل كان يضيف إلى ذلك عناية بالغناء والضرب على الآلات الموسيقية ، مما صفّى ألفاظه صفاء شديداً ، على نحو ما يلاحظ فى مقطوعته البديعة :

إن التى زعمتْ فؤادَك مَلَّها ... جُعِلتْ هواك كما جُعِلْتَ هَوىً لها

فبِكَ الذى زعمتْ بها وكلاكما ... يُبْدِى لصاحبه الصبابةَ كلُّها

بيضاءُ باكرها النعيمُ فصاغها ... بلباقةٍ فأدَقَّهـــا وأجلَّهـــا

لما عرضتُ مسلِّما ، لىَ حاجةٌ ... أرجو معونتها وأخشى دَلَّها

منعتْ تحيَّتها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

واشتهر ناسك من نُسَّاك مكة وقُرَّائها هو عبد الرحمن بن أبى عمَّار الجُشَمِىّ بمانظم من غزل كثير ، وكان يلقَّب بالقَسّ لنسكه وعبادته ، واتفق أن اشترى سلاَّمة المغنية مكىٌّ ثرىٌّ هو سُهَيْل بن عبد الرحمن ، وأحضرها معه من المدينة ،

وأخذت تواصل الغناء فى داره ، فسمعها القَسُّ ذات مرة ، فهام بها ، واشتهر أمره ، فغلب عليها لقبه ، وسُمِّيت سلاَّمة القس ، ومضى ينظم فيها غزله الذى عُرف به من مثل قوله :

سَلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهمُ اللائمُ والعـــاذِرُ

وصورة هذا الغزل عند نُسَّاك المدينتين الكبيرتين فى الحجاز وفقهائهما هى صورته فى نجد ، فهو غزل عذرى عفيف على شاكلة غزل مجنون ليلى وجميل صاحب بثينة ، وغيرهما من شعراء نجد الذين يكتنط غزلهم باللهفة على لقاء المحبوبة والظمأ ظماشديداً إلى هذا اللقاء ظمأ لا يرْوَى أبداً ، وكأن محبوبة الشاعر ملاك سماوى ، فهو ما يزال يناجيها فى لوعة شديدة . وكان الناس والمغنون والمغنيات فى المدينة ومكة يتعلقون بهذا الغزل النَّجْدى ويروونه ويرددونه صباح مساء ، هو وما شاع معه من قصص طريف يحكى هذا الحب البدوى ووقائعه وأواعجه ومايحمله من وجد يصور هذا الغرام الجامح الذى يستأثر بقلب المحب وحسه وشعوره وأهوائه وعواطفه . واقْرَأْ فى شعر جميل صاحب بُثَيْنة فستجد حرقة الفؤاد التى يكتوى بها كيًّا ، وستجده موجع القلب مسلوب العقل باكى العين بكاء لا ينقطع :

وما ذكرتْك النَّفْسُ يا بَثْنَ مَرَّة من الدَّهر إلا كادتِ النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتْنى زفرةٌ واستكانـةٌ وجادَ لها دَلْوٌ من الدَّمْع يَذْرِفُ

فهو يتوجع ويئن ويذرف الدمع مدراراً لذكرى صاحبته وحرمانه من لقائها ورؤية وجهها ، إلا ما بقى له من ذكرى وداعها الباكى ذات يوم ، وهى تبكى معه متأثرة :

كلانا بكَى أو كادَ يبكى صبابةً إلى إلفه واستعجلتْ عبرةٌ قبلى
ولو تركتْ عَقْلى معى ما طلبتها ولكنْ طِلابِيها لما فات من عقلى
فياويح نفسى حسبُ نفسى الذى بها وياويح أهلى ما أُصيب به أهلى

فهو يذكر بكاءهما معا ، والدموع تسيل على خد صاحبته ، مفضية إلى

الحزن والأسى ، أما هو فأفضى إلى حسرات متوالية ، فقد سلبته عقله . وإنه ليأسى على نفسه ، بل أيضاً على أهله لما أصابهم فيه ، وإنه ليتحرَّق شوقاً إليها متمنياً دائماً لقاءها الذى لا تعدل فرحته أى فرحة فى دنياه . بل هو كل دنياه وكل فرحته ومسرته :

وهل أَلْقَيَنْ فرْدًا بُثَيْنة مَرَّةً ... تجودُ لنـــا من وُدِّها ونجودُ
علقتُ الهوى منها وليدًا فلم يزل ... إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيدُ
إذا قلتُ ما بى يا بثينةُ قاتلى ... من الحب قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلتُ رُدِّى بعض عقلى أَعِشْ به ... مع الناس قالتْ ذاك منك بعيدُ

فقد نشأ حبها معه ، وخالط منه القلب حتى الشغاف ، وكل يوم يتمنى لقاءها ، وينتظر وعدها ، وحبها ينمو ، بل يتقد فى قلبه ، ولا وعد يتحقق ولا لقاء يحدث ، وهو يتعذب ويشقى بنيران الحب وآلامه ، حتى ليحس أنه قتيل عشقها وأن عقله فارقه ، وهى لا تنيله أى شىء :

وإنى لأَرضى من بثينةَ بالَّذِى ... لو ابْصَرَهُ الواشى لقرَّتْ بلابلُهْ
بلا وبأَن لا أستطيعَ وبالمُنَى ... وبالأَمل المرجوِّ قد خاب آمِلُهْ
وبالنَّظْرةِ العَجْلَى وبالحول تنقضى ... أواخـــرُهُ لا نلتقى وأوائلُهْ

حتى رَفْض اللقاء يكفيه منها لأنه سيراها . وإنه ليمضى فى آمال مخفقة راضيًا بما يجنيه فى تلك الآمال من متعة ذكراها والتفكير فيها . ويمضى العام والأعوام لا يلتقيان ، وقلبه يخفق بحبها وذكراها محفورة فى فؤاده . وكان أشدَّ منه صبابة وهياماً بصاحبته قيسٌ العامرى : مجنون ليلى التى شغفت قلبه حبًّا منذ صباها الباكر :

تعلَّقتُ ليلى وهْىَ ذات ذُؤابةٍ ... ولم يَبْدُ للأَتْراب من ثَدْيها حَجْمُ
صغيرين نَرْعَى البَهْمَ يا ليت أننا ... إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تكبر البَهْمُ

فقد استأثرت ليلى بكل أحاسيس قيس ومشاعره منذ أن كانا صبيين يرعيان الغنم ، ويعبثان بالرمل عبث الأطفال تارة ، وتارة ثانية يتحدثان أحاديث الصبا ، وقد علقت بفؤاده ، ويكبران ، فتُحْجَبُ عنه وتُسْدَل بينه وبينها الأستار ويظل

يتعذب ويشقى بحبها العنيف :

وأدنيتِنى حتى إذا ما سَبَيْتِنى بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطحِ
تناءيتِ عنى حينَ لا لِىَ حيلةٌ وخلَّفتِ ماخلَّفتِ بين الجوانحِ

والعصم: الوعول الوحشية الجبلية . فهو يذكر حديثها الخلاب الذى يأسر قلبه ، وكأنما كان شباكا مدَّتها لطائر ، حتى إذا علق بها تركته يتعذب كما لم يتعذب أحد ، وكل يوم يزداد تعلقاً بها ، ويزداد استمساكا بحبها ، حباً راسخاً ثابتاً :

لقد رَسَختْ فى القلب منكِ محبَّةٌ كما رسختْ فى الرَّاحَتَيْن الأصابعُ

ويعظم كلفه بها ، ويصبح حبه محنة لا تنصرف عنها نفسه ولا يتخاص منها قلبه ، ويُجَنّ جنون العاشق الولهان . ويختلط عقله ويترك الطعام والشراب ، ويطلق عليه أهل حَيِّه اسم المجنون ، إذ لا يزال يهذى بليلى وحب ليلى، وينشد:

يسمُّوننى المجنونَ حين يرونني نعم بِىَ من ليلى الغداةَ جنونُ

وتأسى له أمه — كما يقول الرواة . فتمضى إلى ليلى ، فتقول لها إن قيسا قد ذهب حبك بعقله ، فلوجئته وقتا ، لعله يثوب إليه بعض عقله . وترقّ له ليلى ، وتلمُّ به ، وتتوسل إليه أن يرفق بنفسه ، وتنبئه بما يقوله الناس عنه من أنه جُنَّ من أجلها ، وتقول له : اتَّق الله وأبق على نفسك ، فيبكى ، وينشد :

قالتْ جُنِنْتَ على ليلى فقلت لها الحبُّ أعظم ممَّا بالمجانينِ
الحبُّ ليس يُفيق الدهرَ صاحبُه وإنما يُصْرَع المجنونُ فى الحينِ

وتتزوج ليلى ، ويتحول حب المجنون إلى ما يشبه حريقاً لا يزال يكتوى بجمراته ونيرانه ، ولا يزال يلذع فؤاده، وهو فى أثناء ذلك ينظم أجمل وأروع ما عرف العرب من شعر الحب الطاهر النقى الذى يخلو من شوائب الغريزة النوعية ، متغلغلا فى وصف اللوعة والوجد الذى لا يدانيه وجد . فليلى ملاكه السماوى ، وهى بعيدة وراء سحب صفيقة ، وهو يتغنى باسمها ويصيح ولا سميع ولا مجيب ، ويهيم فى الأودية والشعاب والجبال مترنماً باسمها ، وكأنما يبحث عنها عبثاً فى كل مكان :

وما أُشْرِف الأَيْفاعَ إلا صَبابةً ولا أُنشد الأَشعار إلا تداويا

وهو بين الجنون والصحو والموت والحياة ، يعيش فى يأس وعذاب يتجرَّعهما ، وهو مسحور بها ، وليس ما يَرْقيه منها أو يشفيه من حبها ، سوى هذه الأشعار التى كان ينظمها فيها ، فيتخاطفها أهل البيد والحاضرة من حوله ، ويتنا شدونها فى مجالسهم ويتداولونها فيما بينهم ، محاولين أن يستظهروها لروعتها البيانية . ويصوِّر ذلك ما يُرْوى عن الناسك ابى السائب المخزومى الذى مر بنا ذكره من انه استمع من منشد إلى قول مجنون ليلى :

تعلَّق رُوحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نِطافاً وفى المَهْدِ

فزاد كما زِدْنا وأصبح نامياً وليس إذا متْنا بمنتقِض العَهْدِ

ولكنه باقٍ على كل حادثٍ وزائرُنا فى ظلمة القبر واللَّحْدِ

فحلف لا يزال يقعد ويقوم حتى يحفظها . وذكر ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد أنه خرج يوما هو وابن أبى عتيق حفيد أبى بكر الصديق يتنزَّهان ، فرمى أبو السائب بقلنسوته ، فقال له ابن أبى عتيق : ما فعلت قلنسوتك ، فقال له : ذكرت قول قيس بن ذَريح صاحب لُبْنى :

أرى الإزار على لُبْنى فأَحسُده إن الإزار على ما ضَمَّ محسودُ

فتصدقتُ بها على الشيطان الذى أجرى هذا البيت على لسانه ، فرمى ابن أبى عتيق بدوره قلنسوته إعجاباً بالبيت وطرباً به . وعلى هذا النحو كان أهل مكة والمدينة يروون أشعار العذريين من أهل نجد ويديرونها بينهم ، ويجعلونها طُرَفَ أحاديثهم ومجالسهم ، هى وما طُوِى فيها من قصص ، وهو قصصٌ حملته العصور هو وما تضمنه من أشعار على نحو ما هو معروف عن قصص مجنون ليلى ، مما جعله يأخذ طابعاً شعبياً إذ تداولته العصور والألسنة فى أجيال متعاقبة حتى اليوم .

وكان يختلف عن هذا الغزل العذرى فى بوادى نجد والحجاز اختلافا جوهريا الغزل عند شباب المدينتين الكبيرتين : مكة والمدينة ، وهو شباب مترف ، لم يكن يعرف العذاب والألم فى الحب ، فحبه حب متحضرين ، وكأنه فن أو لون من

ألوان الحضارة والترف . وخير من يمثّل هذا الغزل ابن أبى ربيعة وعلى شاكلته رفاقه من شعراء مكة والمدينة الذين أترفتهم الحضارة الأجنبية الداخلة حديثا فى مواطنهم : أترفت أذواقهما ومشاعرهما ، كما أترفت ذوق الفتيات والنساء المواطنات لهم . وينبغى أن نفرق بين هذا النوع من الغزل المادى الصريح الناشئ عن الترف وبين الغزل الجسدى الذى تمليه الغريزة النوعية والذى يشترك فيه الحيوان والإنسان . وبدون ريب لم تعرف المدينتان المقدستان فى العصر الأموى هذا النوع من الغزل ، إنما عرفت الغزل المترف الذى يصوره غزل عمر بن أبى ربيعة فى مثل قوله :

ليت هِنْداً أنجزتْنا ما تعِدْ ... وشَفَتْ أنفسَنا مما تَجِدْ
واستبدَّتْ مَرَّةً واحـــدةً ... إنما العاجز من لا يستبدّْ
ولقـــد قالتْ لجاراتٍ لها ... ذات يومٍ وتعرَّتْ تبْترِدْ
أكما ينعتُنى تُبْصِرْننى ... عَمْرَكُنَّ اللهَ أم لا يَقْتصد
فتضاحكْن وقد قُلْن لها ... حَسَنٌ فى كل عينٍ مَنْ توَدّْ
حَسَـــدًا حُمِّلْنهَ من أجلها ... وقديماً كان فى الناس الحسد

وعمر لا يصور ألما فى الحب ولا عذابًا ولا وجداً ، فحبه لا يكاد يتصل بنفسه ولا بفؤاده ، وصاحبته أيضا لا تصور فى حديثها حبًّا ، إنما تصور طرفًا من هواجسها ويصور النساء من حولها غَيْرتهن منها وحسدهن لها . ولذلك مظهر واضح فى غزل عمر ، فهو ضرب من الشوق ، وهى المنزلة التى يتمنى فيها الإنسان أن يلقى الآخر ، ليتمتع بلقائه ، أو بحبه ، ولكن دون أن يبلغ منزلة الحب العذرى ، ويحكى عمر لنا هذا الحب ، لا عنده غالبا وإنما عند الفتيات والنساء ، إذ يعرضون تائقات له مشوقات إلى لقائه ، على نحو ما نرى فى قوله :

قالتْ على رِقْبَةٍ يوما لجارتها ... ماتـأمرينَ فإن القلب قد شُغِلا
وهل لىَ اليومَ من أختٍ مؤاخيةٍ ... منكنَّ أشكو إليها بعضَ ما فعلا
فراجعتْها حَصَانٌ غيرُ فاحشةٍ ... برجْعِ قولٍ ولُبٍّ لم يكن خَطِلا

لا تذكرى حبَّه حتى أراجعه   إنى سأكفيكه ـ إن لم أمت ـ عَجَلا
فاقْنَىْ حياءَك فى سِترٍ وفى كرمٍ   فلستِ أولَ أنْثَى عُلِّقَتْ رجُلا

وقد عبَّرت صاحبته بدقة عن حبها ، فهو ليس حبًّا حقيقيًّا ، إنما هو انشغال للقلب وشوق وتوق إلى لقاء عمر والاستماع إلى ما يقول فيها من أشعار وغزل . ويعرض عمر هذا الشوق الحضرى أو الحب المتحضر إن صح هذا التعبير ، فعمر منصرف عن صاحبته ، وهى تبحث عن أخت مخلصة تشكو إليها انصرافه وشوقها إليه ، وتمنيها بأنها ستتوسط لها عنده ، وتوصيها بالتأنى والتزام الحياء والخفر ، فكثيرات غيرها يتشوَّقْنَ ، ولكن يُبْقِين لأنفسهن على الصيانة ، ونقرأ عنده :

قالتْ لتِرْبٍ لها تُحدِّثها   لنُفْسِدَنَّ الطَّوافَ فى عُمَرِ
قومى تصَدَّىْ له ليعرفنا   ثم اغمِزيه يا أختَ فى خَفَرِ
قالتْ لها قد غمزتُه فأبَى   ثم استمرَّت تسْعَى على أثَرِى

وليس فى هذه الأبيات حب ولا ما يشبه الحب ، وإنما فيها شوق إلى اللقاء ، وغمز ولمز وإشارات بالأعين ، تعلن عن الشوق دون تعبير عن شعور يتصل بالنفس أو القلب ، فلا شعور من هذا القبيل ، وإنما هو ضرب من الإعجاب بعمر على نحو ما كانت تعجب به هؤلاء الفتيات الثلاث :

قالتِ الكُبْرَى أتعرفْن الفتى   قالتِ الوُسْطى نعمْ هذا عُمَرْ
قالتِ الصُّغرى وقد تَيَّمْتُها   قد عرفناه وهل يخفى القمَرْ

فالفتيات معجبات به أو هكذا يخدع نفسه عمر ، غروراً منه ، أو لكى يشبع غروره ، حتى يكبر أمام نفسه وأمام الناس إن هم صدَّقوه ، وصدَّقوا أن للنساء دائما تائقات له ، وما يزلن يرسلن إليه الرسول تلو الرسول ، يترضَّينه ، ويطلبن منه موعداً يضرب به لهن :

إن هنــــدًا قد ارسَلتْ   وأخو الشـــوقِ مرسِــــلُ
أرســلتْ تَسْـــتحثُّنى   وتُفَـــدِّى وتَعْـــذُلُ

فهو يتمنّع ، ومن سمّاها هندا تتوق إليه وتشتاق وتأمل لقاءه . وكل ذلك غزل مترف متحضر ، ليس كغزل البوادى العفيف الذى قرأناه عند مجنون ليلى وجميل صاحب بثينة ، غزل يصور الشوق إلى لذات اللقاء وما يمر منه بخواطر المرأة ، كما يصور غرور الرجال وما قد يمر منه بخواطرهم من إعجاب بأنفسهم . وهو نمط آخر غير نمط الحب العذرى الذى مرّ بنا والذى كان أصحابه يصطلون بناره المحرقة ويتعذبون عذابا لا حد له ، نمط الحب الحضرى المتكلف الذى يمس القلب من بعيد إن صح أنه يمسه أحيانا .

وطوابع شعبية كثيرة تلاحظ على هذا الغزل جميعه ، الغزل المتحضر ، والغزل العذرى ، إذ أصبح فى جمهوره مقطوعات حتى يسهل حفظه ونقله ، وقد تطول المقطوعة منه ، ولكنها لا تسرف فى الطول ، حتى لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف ، وإنما تصبح مقطوعة طويلة تستهلّ بالحب وتمضى فيه حتى نهايتها ، فهى مهما طالت ليست قصيدة منوعة الموضوعات . وقد اختفى من هذا الغزل ، أو كاد ، بكاء الأطلال وذكر آثار الديار ، وخاصة عند شعراء مكة والمدينة ، إذ لم تكن حياة الشعراء فى البلدتين المذكورتين تعتمد على الارتحال من موضع إلى موضع فى البادية ، كما كان الشأن عند الجاهليين ، بل كانت تعتمد على الاستقرار والإقامة ، فلم يعد الشاعر يحس حاجة حقيقية إلى التغنى بالرسوم والأطلال الداثرة وبأحبائه اللائى طال عهد لقائه بهن فى أيام الصبا والشباب إذ أصبح يلقى من شغفن قلبه حبا ويسمر معهن من حين إلى حين . ومن تمام الشعبية فى غزل العصر جميعه لغته السهلة اليسيرة ، كما مر بنا ، فهو لا يصاغ فى عبارات جزلة ضخمة ولا فى ألفاظ آبدة غريبة ، إنما يصاغ فى ألفاظ عادية مألوفة وفى عبارات عذبة رشيقة ، فدائما لغته كأنها من نفس لغتنا المألوفة التى نستخدمها اليوم أو قل كأنها من نفس الأحاديث الشعبية اليومية التى كان يتخاطب بها الناس فى المدينة ومكة وبوادى نجد والحجاز ، لغة خالية من أى عسر ومن أى تعقيد ، لغة لا تكاد تسمعها الجماهير حتى تدور فى أفواهها وعلى ألسنتها . وطبيعى أن تتسع هذه الظاهرة عند شعراء مكة والمدينة ، لأن المجتمع فيهما كانت قد دخلته عناصر أجنبية كثيرة ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه العناصر استطاعت أن تستحدث للغناء العربى نظرية جديدة ، هى النظرية التى

نقرؤها فى كتاب الأغانى حين يعقّب أبو الفرج على الصوت الذى يذكره بقوله : ثقيل أول أو خفيف الثقيل أو رمل إلى غير ذلك من مصطلحات غنائية . وكانوا يغنون فى هذه النظرية ما ينظم شعراء مكة والمدينة من غزل ، فكان لابد أن يلاحظهم الشعراء وأن لايرتفعوا بلغتهم عن مستوى لغة الحياة العاملة ، حتى يفهموا عنهم ويتقنوا ما يصنعون من ألحان لمقطوعاتهم الغزلية ، مما جعلهم يشتقون لهم لغة الغزل من نفس محيطهم اليومى وما يسمعون فيه من ألفاظ شفوية .

وقد أصبح المثل الأعلى عند شعراء الغزل فى مكة والمدينة أن يلائموا بين موسيقى أشعارهم وأوزانها وبين نظرية الغناء الجديدة ، وكان أول ما حاولوه من ذلك أن تكون أوزانهم سهلة خفيفة ، ولعل هذا هو السبب الحقيقى فى أن تكثر عند ابن أبى ربيعة الأرمال والأهزاج ، وعدل الشعراء معه إلى الأوزان الخفيفة الأخرى من مثل السريع والخفيف والمتقارب والوافر . أما الأوزان الطويلة المعقدة فقد غيروا كثيرا فى مدّ حركاتها ورفع الصوت بها ، وفى تقصيرها وإتاحة الهمس لها ، عن طريق ما سمّاه أصحاب علم العروض فيما بعد باسم الزحافات والعلل . ولم يكتف ابن أبى ربيعة ونظراؤه بذلك ، فقد مضوا يكثرون من تجزئة الأوزان المعقدة مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد أكثروا من تجزئة الأوزان الخفيفة مثل الرمل والخفيف والمتقارب حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كى يلائموا بين أشعارهم والألحان التى يريدون أن يوقّعوها معها على آلاتهم وطبولهم الموسيقية وبذلك يستطيعون أن يطيلوا مادين ، أو يقصّروا هامسين ، فى أنفاسهم وألحانهم ، كما يستطيعون أن يرتفعوا بأصواتهم ويجهروا بها ماشاءت لهم إراداتهم الفنية من الجهر ، أو ينخفضوا بها ماشاءت لهم تلك الإرادات من الانخفاض والهمس ، حسب حاجاتهم اللحنية والنغمية .

ولعلنا لانغلو إذا قلنا إن أهل مكة والمدينة جميعا عاشوا فى هذا العصر لسماع شعر الغزل والغناء فيه ، أو بعبارة أخرى لسماع الموسيقى والطرب حتى صدق فيهم قول بعض معاصريهم : « إذا أعجزك أن تملك إعجاب القرشى فغنّه فى الغزل فإنك ترقصه » . ويخيّل إلى الإنسان كأنما استحالت حياة الناس كلها هناك طرباً وغناء ، يدلّ على ذلك من بعض الوجوه أن الخليفة معاوية بن أبى سفيان حجّ فى موكب ضخم ، وكان من عادته أن ينثر الأموال فى حجّه على سكان المدينتين

المقدستين الكبيرتين ، فلما نزل المدينة مع موكبه لم يجد أحداً فى استقباله واستقبال أمواله الطائلة ، فسأل عن الناس ، فقالوا إنهم بدار عبد الله بن جعفر يستمعون إلى بعض المغنين . واشتهرت المدينة حينئذ بدار جميلة ، وكانت تضارع المسارح الكبيرة فى عصرنا . وكانت مخصصة للغناء ، ويدل وصفه فى كتاب الأغانى أنه كان تارة منفرداً ، وتارة ثانية كان يُصْحَبُ بجرقة ، وتارة ثالثة كان يرافقه الرقص . وتخرَّج فى هذه الدار عشرات من المغنين والمغنيات . وكان يقابلها فى مكة دور غناء كبرى لأمثال ابن سُرَيْج والغَرِيض .

وعمل هؤلاء المغنون الكثيرون على نشر أغانى الغزل الصريح والعذرى ، فقد أضافوا إليها ألحانا خلبت ألباب الناس ، وجعلتهم يحفظونها ويتداولونها على ألسنتهم . ولا تكاد تجد فى هذا العصر قطعة بديعة فى الغزل إلا وقد دوَّنها المغنون والمغنيات فى صناديق أنغامهم ، سواء من كان منهن فى مكة أو فى المدينة . ودائماً كان المكيون يرحلون إلى المدينة ، ونقصد المغنين ، ليستمعوا إلى ما يغنَّى فيها بدار جميلة أو دار مَعْبد ذائع الصيت وأضرابه ، وبالمثل كان مغنّو المدينة يرحلون إلى مكة ليستمعوا إلى ما أحدث ابن مُحْرز وابن سُرَيْج وأمثالهما من ألحان بديعة . وكان الشعراء يصنعون صنيعهم ، فشعراء مكة من أمثال ابن أبى ربيعة يرحلون إلى المدينة ليعرضوا على كبار المغنين والمغنيات فيها أشعارهم ، ليلحنوها لهم ، حتى تذيع على الأفواه ، وبالمثل كان شعراء المدينة يرحلون إلى مكة ليعرضوا على مغنيها ومغنياتها أشعارهم ، وليستمعوا إلى تلاحينهم فيها . وأعطى ذلك كله شعر الغزل فى المدينتين فرصة كى يسجَّل فى صناديق المغنين والمغنيات وكى يذيع وينتشر فى الناس . وكان ينزل من المغنين كثيرون فى الطائف وخاصة فى يام الصيف المحرقة ، وكان نفر منهم ينزل فى وادى القرى شمالى المدينة مثل عمر الوادى ، ويُرْوَى أنه سمع أغنية من أغانى الحب يغنيها بعض البدو ، فأعجب بها إعجاباً لاحد له ، وأخذها عنه ، وكان يقول : أنه لم يترنم بها وهو جائع إلا شبع ، ولم يتغن بها وهو كسلان إلا نشط ، ولم يلحنها وهو مستوحش إلا أنس . وكأن الحجاز جميعه بحواضره وبواديه كان يتناقل هذه الأغانى وما تحمل من غزل .

ولم يقف انتشار أغانى الحب الحجازية والنجدية عند هذا الحد ، فقد مضت

تنتشر فى الشام عن طريق من كان يستقبلهم الخلفاء من المغنين، فيسْجح مغنى مكة وبُديَح مغنى المدينة يستقبلهما عبد الملك ، ويستقبل ابنه الوليد ابن سُرَيْج المكى، وبمجرد أن جلس يزيد بن عبدالملك على عرش الخلافة أرسل فى طلب المغنين من المدينة ، ووفد عليه منهم معبد ومالك الطائى وابن عائشة ، وعقد لهم حفلات كبيرة فى قصره . ومعروف أنه اشترى من مغنيات الحجاز أحلاهن صوتا : سلامة القس وحبابة . وخلفه ابنه الوليد فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف لمغنى الحجاز، وهو يعد رمزا كبيرا لتأثير الغزل الحجازى وأغانيه فى الأقاليم العربية ، فقد تحول ينظم على مثاله أشعارا كثيرة . ولم يقف نشر المغنين والمغنيات لأغانى الحب عند الشام، فقد حملوه إلى أنحاء كثيرة، مثل الغريض مغنى مكة ، فإنه نزل اليمن ونشر بها أغانيه ، ونزل الأبجر زميله مصر وصدح فيها بأغانيه . واشتهرت العراق فى أواخر العصر بدار ابن رامين فى الكوفة ومغنياتها المدنيات اللائى تخرجن فى دار جميلة مثل سلامة الزرقاء وسَعْدة وربيحة، وكن مقدمة لنهضة الغناء وأغانيه فى العصر العباسى .

ومما عمل على انتشار الأغانى الحجازية والنجدية وذيوعها ذيوعا واسعا الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة والمدينة من أطراف العالم الاسلامى ، فكان بعضهم يختلف إلى دور المغنين . وكان المغنون يتعرضون للناس وهم يؤدون مناسكهم ، من ذلك ما رواه أبو الفرج فى كتاب الأغانى عن ابن سُرَيْج من أنه تغنّى عند بستان ابن عامر بمكة ، فتزاحم الحجاج يستمعون إليه ، لا يتحركون ، حتى ناداه رجل قائلا : ياهذا قد حبست الحجاج والوقت ضاق فاتّق الله واتركهم ، فتركهم، وسار الناس . وسمعه يزيد بن عبد المالك فى بعض المواسم ، فأعطاه جائزة ثمينة . وكان يرافق الحجاج أحيانا فى قوافلهم بعض المغنين . إما فى ترحالهم بين المدينة ومكة ، وإما فيا هو أبعد من ذلك ، واشتهر أحد أصحاب القوافل وهو دَحْمان من مغنى المدينة بأنه كان يغنى فى قوافله هو وبعض الجوارى ، ويقال إن الوليد بن يزيد استمع إلى جارية فى إحدى قوافله ، فأعجبته واشتراها بعشرة آلاف دينار .

وكل ذلك عمل على ذيوع شعر الغزل فى العصر وانتشاره ، كما عمل على حفظه ، ذ ظلت أكثر الأغانى تلحّن حقبًا متعاقبة، بحيث استطاع المؤلفون للأغانى وألحانها فى العصر العباسى أن يسجلوا من أفواه المغنين والمغنيات فى عصرهم أكثر ما تغنى به

أسلافهم فى العصر الأموى . وتشيع مع ذلك ظاهرة ثانية هى أن الأغنية التى لُحِّنت فى العصر الأموى كانت كثيرا ما يُعاد تلحينها فى العصر العباسى ، إذ يعيد تلحينها كبارُ المغنين والمغنيات فيه ، بل نستطيع أن نقول إن ذلك نفسه كان يحدث فى العصر الأموى عند مغنى البلدتين المقدستين ومغنياتهما ، فالمقطوعة الغزلية الواحدة تغنَّى فى مكة ثم تغنَّى فى المدينة أو العكس . وليس ذلك فحسب ، فقد يشترك فى غنائها وتلحينها أكثر من مغن من بلدة واحدة . وكل ذلك عمل على اتساع نشرها وذيوعها . ومن أطرف ما يدل على ذلك دلالة واضحة مقطوعة عمر بن أبى ربيعة التى أنشدها لابن عباس أمام زواره من الخوارج والتى أنشدنا منها بيتا فيما أسلفنا ، وهى تمضى على هذا النحو :

تَشُطُّ غداً دارُ جيراننا ... وللدَّارُ بعدَ غدٍ أبْعَدُ
أتتْنا تهادَى على رِقْبةٍ ... من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ
تقول وتُظْهر وَجْداً بنا ... ووَجْدِى ـ وإن أظهرتْ ـ أوْجَدُ

ويذكر أبو الفرج إزاء المقطوعة أنها لُحِّنَتْ مراراً فى العصرين الأموى والعباسى ، ويقول إن الذى أحْصِى فيها إلى وقته تسعة عشر لحناً ، ويذكر ممن غنى فيها من المكيين ابن مِسْجح وابن سُرَيْج ومن المدنيين معبداً والأبجر ومالكاً الطائى ويونس ، وكل هؤلاء من كبار المغنين المعاصرين لابن أبى ربيعة فى العصر الأموى . وممن غنى فيها من العباسيين ابن جامع والهشامى وابن المكى وإسحق الموصلى وعُلَيَّة بنت المهدى . وليس من شك فى أن هذه التلاحين جميعا أتاحت لمقطوعة ابن أبى ربيعة أن تحفظ من عصر إلى عصر وأن تُتداول فى أوسع نطاق . ومثلها المقطوعات والأغانى الكثيرة الأخرى له ولشعراء مكة والمدينة وشعراء البوادى فى نجد والحجاز تلك التى تغنَّى لهم فيها كبار المغنين والمغنيات فى عصرهم ، وظلت تنتقل من جيل إلى جيل حتى دوَّنها أبو الفرج فى أغانيه .

وبين أيدينا أخبار كثيرة عن مدى تأثر الناس بأغانى الحب فى العصر ، حتى ليروى أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة ومعه خُمُرٌ (جمع خِمار) مختلفة الألوان فباعها كلها إلا ذات اللون الأسود إذ لم تُقْبل امرأة على الشراء منها . وكان

صديقا لمغن بالمدينة يسمى الدارمى، فشكا ذلك إليه، وكان الدارمى شاعراً . فقال له: لا تهتم ولا تفكر، فإنى سأروِّج لك تلك الخُمر، ولم يلبث أن نظم أبياتا يقول فيها:

قُلْ للمليحة فى الخِمار الأسودِ ماذا صنعتِ براهبٍ متعبِّدِ
قد كان شمَّر للصلاة ثيابَهُ حتى وقفتِ له بباب المسجد

وتغنَّى فى الأبيات وشاعت فى الناس، فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا اشترت خماراً أسود، حتى نفد ما كان مع التاجر الكوفى من الخمر السوداء . ومما يدل بوضوح على مدى إحساس الناس فى العصر بانتشار الغزل وذيوعه الواسع أن السيدات والفتيات النابهات فى المدينتين الحجازيتين كن يتعلقن به لا بسماعه فحسب، بل أيضا بذكرهن فيه، وفى مقدمتهن الثريا بنت على بن عبد الله الأموية فى مكة وعائشة بنت طلحة فى المدينة، فقد كن جميعا لا يجدن حرجًا فى أن يذكرن على ألسنة الشعراء من أمثال ابن أبى ربيعة، لأن فى ذلك تنويهًا بجمالهن، ستتناشده البيد والحواضر، ومعروف أن النساء يعجبهن الثناء من قديم . وكأنما كان الغزل فى مكة والمدينة حينئذ أشبه بمجلاتنا وصحفنا، فكما أن المرأة الحديثة لا تشعر بحرج فى أن تظهر صورتها فى صحيفة يومية أو فى مجلة أسبوعية، فكذلك كان الغزل الذى يتغنى فيه المغنون والمغنيات بالحجاز صحفًا سيارة تظهر فيها — دون أى حرج — صور المرأة فى المدينتين . وكانت هذه الصحف الحجازية القديمة تدخل كل بيت ترافقها الأصوات المطربة، وحتى شريفات بنى أمية وغيرهن كن يطلبن أن تظهر صورهن فى تلك الصحف، من ذلك ما رواه صاحب الأغانى من أن أم محمد بنت الخليفة مروان بن الحكم أرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار، كى يذكرها فى غزله، حتى يطير اسمها على الأفواه، وروى أيضا أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك طلبت — حين حجت — إلى الشعراء أن ينظموا فيها بعض الشعر فتشجعت طائفة منهم ونظمت وجَبُنَتْ طائفة أخرى، فاكتفت بالنظم فى بعض جواريها .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور بوضوح الطوابع الشعبية فى غزل هذا العصر وهى طوابع امتدت كما رأينا إلى موضوعات الشعر الأخرى، فليس هناك شعر إلا وتسوده . ومن تتمة ذلك أننا نجد كثيرين من الموالى فى كل بلد عربى يتخذون الشعر لسانا لهم يؤدُّون به عن ذات أنفسهم وعن إحساساتهم ومشاعرهم، ونبغ منهم

طائفة ترجم لها أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى ترجمات ضافية مثل إسماعيل ابن يسار النسّائى وإخوته فى المدينة وأبى العباس الأعمى فى مكة وزياد الأعجم مولى قبيلة عبد القيس ويزيد بن مفرغ مولى اليمانية فى البصرة . وجمعت منهم طائفة بين إتقان الشعر وإتقان الغناء مثل أبى سعيد مولى فائد وسلاّمه القسّ الجارية المشهورة ولها غزل رقيق . وينشد الجاحظ فى رسالته « فخر السودان على البيضان » أشعاراً كثيرة للرقيق السودانى والإفريقى حينئذ من أمثال الحيْقطان وسُنَيْح يفتخرون فيها بأصولهم السودانية والإفريقية مدافعين عن سواد بشرتهم ومعتزين ببعض خِلالهم ، من مثل قول الحيْقطان :

لئن كنتُ جَعْدَ الرَّأس والجِلدُ فاحمٌ ... فإنى لسَبْطُ الكفِّ والعِرْضُ أزْهَرُ

وإن سوادَ اللون ليس بضائرى ... إذا كنت يوم الرَّوْع بالسيف أخْطِرُ

والأزهر : النقى . وفى كتاب الأغانى ترجمة طويلة لنُصَيْب الشاعر الحجازى ، وكان ابن نوبيَّيْن ، فابتاعه عبد العزيز بن مروان والى مصر لأخيه عبد الملك وأعتقه . وكان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يجزُل له فى العطاء ، وأنكر عليه بعض جلسائه ذلك يوما ، قائلا : أتعطى هذا العبد الأسود هذه العطايا الوافرة ؟ فقال للائمه : والله لئن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض وإن شعره لعربى ، ولنصيب أشعار كثيرة يدافع فيها عن سواده بمثل قوله :

فإنْ يَكُ من لونى السوادُ فإننى ... لكالمِسْكِ لا يَرْوَى من المسك ذائِقُهْ

ونشأتْ حينئذ فى الكوفة طبقة بائسة فقيرة ، وهى توجد فى المدن دائمًا لكثرة المطالب اليومية فيها للحياة والمعيشة وكان الحكم بن عَبْدل الشاعر الذى مر بنا ذكره يصوّر بؤس هذه الطبقة ، عن طريق تصويره لتعاسته وشظف عيشه وكثرة ما يملأ بيته من العناكب والحشرات والجرذان . وكل ذلك معناه أن الشعر فى العصر الإسلامى كان الأداة العامة للتعبير عن الحياة الشعبية وأحاسيس الناس رجالا ونساء ورقيقًا وأحراراً ، وبعبارة أخرى كان الصحيفة الشعبية المتداولة فى كل الأوساط وكل البيئات بين العرب والمستعربين جميعا .